

حِكْمَةُ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ

للفيروف تولسوى

وشى عن الإسلام

نقدم الى العربية عن الروى

سليم قبعين

غلاف : يوسف شاكر

محكم النبي محمد

لفيلسوف تولستوى ، ترجمة : سليم قبعين الطبعة الثانية ، ١٩١٥ الطبعة الثالثة ، ٩٨٧

© مصرية للنشر والتوزيع

٨٨ ش المطوف ، الجمالية - القاهرة ، ص . ب : ١٥٥ الخيرية

كلمة لمعرب الكتاب

الرجل العظيم يحترم الرجل العظيم والنفوس الفياضة تصبو إلى نظرائها .
عرف قراء اللغة العربية ما اتصف به الفيلسوف الكونت لاون تولستوى من الجرأة ودفاعه عن الحق الصراح دون أن يخشى لومة لائم أو نقمة ناقم حتى كان يخاطب قيصر روسيا ورجال حكومته مبينا لهم حالة الرعية والبلاد وما تحتاجه من الإصلاحات التي غفلوا عنها والواقف على نظمات روسيا وأحكامها المطلقة لا يسعه إلا أن يعجب بتلك الشجاعة الأدبية الكامنة في جوارح الفيلسوف وعدم رهبته تلك السلطة المطلقة .

رأى الفيلسوف تحامل جمعيات المبشرين في قازان من أعمال روسيا على الدين الإسلامى ونسبتها إلى صاحب الشريعة الإسلامية أموراً تنافي الحقيقة تصور للروسيين تلك الديانة وأعمال صاحب تلك الشريعة بصورة غير صورتها الحقيقية فهزته الغيرة على الحق إلى وضع رسالة صغيرة أختار فيها عدة أحاديث من أحاديث النبي محمد عليه الصلاة والسلام ذكرها بعد مقدمة جلية الشأن واضحة البرهان وقال : هذه تعاليم صاحب الشريعة الإسلامية وهى عبارة عن حكم عالية ومواعظ سامية تقود الإنسان إلى سواء السبيل ولا تقل فى شيء عن تعاليم الديانة المسيحية ووعده بأنه سيضع كتاباً كبيراً يبحث

فيه أبحاثاً إضافية بعنوان « محمد » .

ولما اطلعت على هذه الرسالة راقني ما جاء فيها من الحقائق
الباهرة والمقاصد الشريفة فدفعتني الغيرة على الحق لنقلها إلى
اللغة العربية وقد عانيت المشاق في رد الأحاديث إلى أصولها
العربية التي وردت فيها وإني أرجو أن تصادف خدمتي هذه
القبول الحسن عند عامة المسلمين . وهذا ما أتوخاه في هذه
الهدية التي أرفها للشرقيين عموماً وذلك حسبي وكفى .

كتبه — سليم قبعين

حِكْمَةُ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ لِلْفَيْسُوفِ تُولَسْتَوِي

عرب عبد الله السهروردي في الهند كتاب أحاديث النبي محمد وأتخذ لكتابه عنواناً الآية القرآنية الآتية ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَمُنُّ نوره ولو كره الكافرون﴾ .

والأحاديث المذكورة في هذه الرسالة اختارها من كتاب عبد الله السهروردي الفيلسوف تولستوى وقال إنها لا تخالف في شيء تعاليم الديانات الأخرى التي ترشد إلى الحق وتأمّر بالمعروف وتنبه عن المنكر .



مَنْ كَانَ مُحَمَّدًا

قال الفيلسوف تولستوى تحت هذا العنوان ما هو بالحرف الواحد :

إن محمداً هو مؤسس ورسول الديانة الإسلامية التي يدين بها في جميع جهات الكرة الأرضية مائتا مليون نفس .

ولد النبي محمد في بلاد العرب سنة ٥٧٠ بعد ميلاد المسيح من ابوين فقيرين وكان في حدائته راعياً . ومال منذ صباه إلى الانفراد في البراري والأمكنة الخالية حيث كان يتأمل بالله وخدمته أن العرب المعاصرين له عبدوا أرباباً كثيرة وبالغوا في التقرب إليها واسترضائها فأقاموا لها أنواع التعبد وقدموا لها الضحايا المختلفة ومنها الضحايا البشرية . ومع تقدم محمد في السن كان اعتقاده يزداد بفساد تلك الأرباب وأن ديانة قومه ديانة كاذبة وأن هناك إلهاً واحداً حقيقياً لجميع الشعوب .

وقد ازداد هذا الاعتقاد في نفس محمد حتى قام في نفسه أن يدعو أمته ومواطنيه إلى الاعتقاد باعتقاده الراسخ في فؤاده وقد دفعه عامل داخل إلى أن الله اصطفاه لإرشاد أمته وعهد إليه هدم ديانتهم الكاذبة وإنارة أبصارهم بنور الحق فأخذ من ذلك العهد ينادى باسم الواحد الأحد بحسب ما أوحى إليه ومقتضى اعتقاده الراسخ .

وخلاصة هذه الديانة التي نادى بها محمد هي أن الله واحد

لا إله إلا هو ولذلك لا يجوز عبادة أرباب كثيرة وأن الله رحيم عادل وأن مصير الإنسان النهائي متوقف على الإنسان نفسه فإذا سار حسب شريعة الله وأتم أوامره واجتنب نواهيه فإنه في الحياة الأخرى يؤجر أجراً حسناً وإذا خالف شريعة الله وسار على هواه فإنه يعاقب في الحياة الأخرى عقاباً شديداً . وأن كل شيء في هذه الدنيا فان زائل ولا يبقى إلا الله ذو الجلال . وأنه بدون الإيمان بالله وإتمام وصاياه لا يمكن أن تكون حياة حقيقية وأن الله تعالى يأمر الناس بحبته ومحبة بعضهم ومحبة الله تكون في الصلاة ومحبة القريب تقوم في مشاركته في السراء والضراء ومساعدته والصفح عن زلاته وأن الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر يقتضى عليهم أن يبذلوا وسعهم لإبعاد كل ما من شأنه إثارة الشهوات النفسانية والابتعاد أيضا عن الملذات الأرضية وأنه يصحتم عليهم أن لا يخدموا الجسد ويعبدوه بل يجب عليهم أن يخدموا الروح وأن يزهدوا في الطعام والشراب وأنه محرم عليهم استعمال الأشربة الروحية المهيجة ومختم عليهم العمل والجد وما شابه ذلك .

ومحمد لم يقل عن نفسه أنه نبي الله الوحيد بل اعتقد أيضا بنبوة موسى والمسيح وقال إن اليهود والنصارى لا يكرمون على ترك دينهم بل يجب عليهم أن يتحموا وصايا أنبيائهم .

وفي سنى دعوة محمد الأولى احتمل كثيراً من اضطهاد أصحاب الديانة القديمة شأن كل نبي قبله نادى أمته إلى الحق ولكن هذه الاضطهادات لم تكن عزمه بل ثابر على دعوة أمته . وقد امتاز المؤمنون كثيراً عن العرب بتواضعهم وزهدهم في الدنيا وحب العمل والقناعة وبذلوا جهدهم لمساعدة إخوانهم في الإيمان لدى حلول المصائب بهم .

ولم يمض على جماعة المؤمنين زمن طويل حتى أصبح الناس

المحيطون بهم يحترمونهم احتراماً عظيماً ويعظمون قدرهم وغدا
عدد المؤمنين يتزايد يوماً فيوماً .

غير أن أصحاب الغيرة من أنصار النبي كانوا ينظرون إلى
الوثنيين المحيطين بهم وفسادهم بعين الغضب والاستياء فدفعتهم
غيرتهم على الحق إلى التشدد في الدعوة إلى دين الإسلام
والاعتراف بوحداية الله ومع أن هؤلاء الأنصار لم يبيحوا
سفك الدماء للحصول على الأموال أو غيرها من متاع الدنيا
من جانب فإنهم من الجانب الآخر لم يبيحوا التهاون أو التخاذل
أمام أولئك الذين أصروا على البقاء في الضلال .

وإذا كان انتشار الإسلام بصورة كبيرة على يد هؤلاء لم
يرق بعض من البوذيين والمسيحيين فإن ذلك لا ينفي حقيقة أن
المسلمين اشتهروا في صدر الإسلام بالزهد في الديانة الباطلة
وطهارة السيرة والاستقامة والنزاهة حتى أدهشوا المحيطين بهم
بما هم عليه من كرم الأخلاق ولين العريكة والوداعة ومن
فضائل الدين الإسلامي أنه أوصى خيراً بالمسيحيين واليهود
لاسيما قسوس الأوليين فقد أمر بحسن معاملتهم ومؤازرتهم
حتى أباح هذا الدين لاتباعه التزوج من المسيحيات واليهوديات
مع الترخيص لهم بالبقاء على دينهم ولا يخفى على أصحاب
البصائر النيرة ما في هذا من التساهل العظيم ومما لا ريب فيه أن
النبي محمداً من عظام المصلحين الذين خدموا الهيئة الاجتماعية
خدمة جليلة ويكفيه فخراً أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق
وجعلها تفتح للسكينة والسلام وتفضل عيشة الزهد ومنعها
عن سفك الدماء وتقديم الضحايا البشرية وفتح لها طريق الرق
والمدنية وهو عمل عظيم لا يقوم به إلا شخص أوتي قوة ورجل
مثل هذا جدير بالاحترام والإكرام .





من مقدمة المؤلف الهندي

إننا لله وإنا إليه راجعون . إننا جميعنا أبناء الله وحياتنا تنحصر في التقرب إليه تعالى . إن شرارة الإيمان مخفية في قلب كل إنسان .

إن ديننا القويم يقدم رجاء الخلاص لجميع أتباعه والذين يدخلونه . إن النفس التي تكرم القدير العظيم — تلك النفس التي تسعى إلى معرفة الحق وتسير في طريق الصلاح ستحظى بالحياة الأبدية والغبطة الدائمة .

عبد الله السهروردي



الأحاديث النبوية^(١)

(١) هذه الأحاديث احتارها الفيلسوف تولستوى من كتاب عبد الله السهروردى وعربها من الإنكليزية إلى الروسية كما أشرنا إليها سابقاً ودعاها « حكم النبي » وفي الأصل الروسى أحاديث غير هذه لم نقف عليها في كتب الأحاديث ويظهر أنها من حكم الأولياء أو العرب التي ينسبها الإفرنج في كتبهم إلى النبي .

- اللهم ارزقني حيك وحب من ينفعى حبه عندك .
- قل الحق وإن كان مرا .
- أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً . فقال رجل يا رسول الله أنصره مظلوماً . فكيف أنصره ظالماً ؟ فقال تمنعه من الظلم فذلك نصرك إياه .
- من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وأزيد . ومن جاء بالسيئة فجزاء سيئة مثلها أو أخفر . ومن تقرب منى شيراً تقربت منه ذراعاً ، ومن تقرب منى ذراعاً تقربت منه باعاً . ومن أتاني يمشي أتيته هرولة ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئاً لقيته بمثلها مغفرة .
- ● اللهم أحيى مسكيناً وتوفى مسكيناً واحشرنى في زمرة المساكين .
- لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه
- حفت الجنة بالمكاره والنار بالشهوات .
- الحلال بين والحرام بين .
- ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء .
- سأل رجل النبي صلى الله عليه وسلم أى الإسلام خير ؟ قال : أن تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف .
- لا تقيتوا قلوبكم بكثرة الطعام والشراب .

- كنت كنزا مخفياً فأردت أن أعرف فخلقت الخلق
فعرّفوني .
- أفضل الصدقة إصلاح ذات البين وحفظ اللسان .
- أيما امرأة استعطرت ثم خرجت فمرت بقوم ليجدوا ريحها
فهي زانية وكل عين زانية .
- الجليس الصالح خير من الوحدة والوحدة خير من جليس
السوء . وأملأ الخير خير من السكوت والسكوت خير من
أملأ الشر .
- زنا العين النظر . وزنا النفس المنطق والنفس تمنى
وتشتى .
- من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمناً
وإيماناً .
- القبر أول منزلة من منازل الآخرة .
- أفضل الجهاد من جاهد نفسه في ذات الله عز وجل .
- إن الرجل إذا دخل في صلته أقبل الله عليه بوجهه .
- إن الله تعالى يحب أن يرى عبده ساعياً في طلب الحلال .
- من يصبر على الرزية يعوضه الله .
- آفة الدين ثلاثة : فقيه فاجر . وإمام جائر . ومجتهد
جاهل .
- إنما النساء شقائق الرجال .
- آفة العلم النسيان وإضاعته أن تحدث به غير أهله .
- الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة .
- الكذب مجانب للإيمان .
- إعلمها وتوكل .
- لاعادة كالتفكير .
- حبك للشئ يعنى ويصم .

- لا يكمل إيمان المرء حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه .
- أفضل كلمة قالها شاعر كلمة لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل .
- ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدق ، قالوا بلى يا رسول الله قال الله إصلاح ذات البين .
- إن أول خلق خلقه الله عز وجل العقل . فقال له أقبل فأقبل ثم قال له أدير فأدير . فقال وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحب إلي منك بك آخذ وبك أعطى وبك أثيب وبك أعاقب .
- ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد هو الذي تملك نفسه عند الغضب .
- ارض بما قسمه الله لك تكن أغنى الناس .
- إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه في المال فلي نظر إلى من هو أسفل منه .
- دخل عمر على رسول الله وهو على حصير قد أثر في جنبه فقال يا نبي الله لو اتخذت فراشاً . فقال مالي وللدنيا मामثل ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة من النهار ثم راح وتركها .
- خصلتان من كانتا فيه كتب الله شاكراً صابراً : من نظر في دينه إلى من هو فوقه فاقتدى به . ومن نظر في دنياه إلى من هو دونه فحمد الله على ما فضله الله عليه .
- جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال إني أحبك قال انظر ماتقول ، فقال إني والله لأحبك ثلاث مرات . قال إن كنت صادقاً فاعد محفافاً للفقير أسرع إلى من يجنبى من السيل إلى متناه .
- ليردك عن الناس ما تعلم من نفسك .

- امش ميلاً عد مريضاً . وامش ميلين أصلح بين اثنين وامط الأذى عن الطريق فإنه لك صدقة .
- اتق الله ولا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقى وأن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط إليك وإسبال الآزار فإن إسبال الآزار من الخيلة ولا يوجبها الله . وإن امرأ شتمك وعيرك بأمر هو فيك فلا تعيره بأمر هو فيه ودعه يكون وباله عليه وأجره لك . ولا تسبن أحدا .
- قدم على النبي ﷺ بسبي فإذا امرأة من السبي تحلب ثديها تسقى . إذا وجدت صبيا في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته . فقال النبي : أترون هذه طارحة ولدها في النار قلنا لا . وهي تقدر على أن لا تطرحه . فقال الله أرحم بعباده من هذه بولدها .
- من ظلم أجيراً أجره أحبط الله عمله وحرم عليه ربح الجنة .



(دعاء النبي)

يا حي يا قيوم لا آله إلا أنت برحمتك أستغيث اغفر لي
ذنوبي وأصلح لي شأني وفرج لي همي برحمتك .

اغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب العظيمة إلا الرب العظيم
احرسني بعينك التي لا تنام واكنفني بركتك الذي لا يرام
وارحمي بقدرتك عليّ فلا أهلك وأنت رجائي فكم من نعمة
أنعمت بها عليّ قلّ لك عندها شكري وكم من بلية ابتليتني بها
قلّ لك عندها صبري يا ذا المعروف الذي لا ينقضى أبداً ويا ذا
النعماء التي لا تحصى عدداً نجني مما أنا فيه وأعني على ما أنا
عليه مما قد نزل بي بجاه وجهك الكريم .

قال النبي وحوله جماعة من أتباعه : « تعالوا بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتون بيهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوني في معروف فمن وفى منكم فأجره على الله » .

سيأتي زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه ولا من الدين إلا اسمه تنزع الرحمة من قلوبهم وتقل مكاسب الحلال ويكثر الحرام .

عفوا تعف نساؤكم .

علم لا ينفق ككنز لا ينفق منه .

ليس من أخلاق المؤمن التملق ولا الحسد إلا في طلب

العلم .

زين الله السماء بثلاث : الشمس والقمر والكواكب وزين

الأرض بثلاث : العلماء والمطر وسلطان عادل .

العلم إمام والعمل تابعه يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء .

العالم إذا خرج من الدنيا كالمصباح يخرج من بيت مظلم .

وواضع العلم عند غير أهله كمقلد الخنازير الجواهر واللؤلؤ

والذهب .

يقول الله عز وجل يوم القيامة يا ابن آدم مرضت فلم تعدني

قال : يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين قال : أما علمت

أن عبدي فلانا مرض فلم تعده أما أنك لو عدته لوجدتني

عنده . يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني قال : يارب كيف

أطعمك وأنت رب العالمين قال : أما علمت أنه استطعمك

عبدي فلان فلم تطعمه أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت

ذلك عندي يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني قال : يارب

وكيف اسقيك وأنت رب العالمين قال : استسقاك عبدي

فلان لم تسقه أما علمت لو سقيته لوجدت ذلك عندي .

اعمل لدينك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك
تموت غداً .
من كذب فحجر ومن فجر كفر ومن كفر دخل النار



وكتب الإمام المرحوم الأستاذ العلامة الشيخ محمد عبده إلى
الفيلسوف تولستوى واضع هذا الكتاب الخطاب الآتي فأثرت
إثباته لجزيل فائدته وهو بالحرف الواحد :

أيها الحكيم الجليل موسيو تولستوى :

لم نحظ بمعرفة شخصك ولكننا لم نحرم التعارف مع
روحك ، سطع علينا نور من أفكارك ، وأشرقت في آفاقنا
شموس من آرائك ، ألفت بين نفوس العقلاء ونفسك . هداك
الله إلى معرفة سر الفطرة التي فطر الناس عليها ووقفك على
الغاية التي هدى البشر إليها ، فأدركت أن الإنسان جاء إلى هذا
الوجود لينبت بالعلم ويشمر بالعمل ولأن تكون ثمرته تبعاً ترتاح
به نفسك وسعياً يبقى به ويرى جسده وشعرته بالشقاء الذي
نزل بالناس لما انحرفوا عن سنة الفطرة وبما استعملوا قواهم التي
لم يمنحوها إلا ليسعدوا بها فيما كدر راحتهم وزعزع
طمأنيتهم .

ونظرت نظرة في الدين مزقت حجب التقاليد ، ووصلت
بها إلى حقيقة التوحيد ورفعت صوتك تدعو الناس إلى ما هداك
الله إليه ، وتقدمت أمامهم بالعمل لتحمل نفوسهم عليه فكما
كنت بقولك هادياً للعقول كنت بعملك حاثاً للعزائم والهمم ،
وكما كانت آراؤك ضياء يهتدى بها الضالون كان مثالك في
العمل إماماً يقتدى به المسترشدون ، وكما كان وجودك تويحاً
من الله للأغنياء كان مداداً من عنايته للضعفاء الفقراء ، وإن
أرفع مجد بلغته وأكبر جزاء نلته على متاعبك في النصح
والأرشاد هو هذا الذي سماه الغافلون بالحرمان والإبعاد ، فليس
ما حصل لك من رؤساء الدين سوى اعتراف منهم أعلنوه للناس
أنك لست من القوم الضالين فاحمد الله على أن فارقوك في
أقوالهم كما كنت فارقتهم في عقائدهم وأعمالهم .

هذا وإن نفوسنا لشيقة إلى مايتجدد من آثار قلمك فيما
تستقبل من أيام عمرك وإنا نسأل الله أن يمد في حياتك ويحفظ
عليك قواك ويفتح أبواب القلوب لفهم قولك ويسوق النفوس
إلى التأسى بك في عملك والسلام .





ولما انتقل الفيلسوف تولستوى من دار الفناء إلى دار البقاء
وقع نبأ وفاته وقعا مؤلماً في الغرب والشرق ورثاه الفلاسفة
والشعراء ومن ذلك ما قاله شاعر وداعى النيل صاحب السعادة
أحمد بك شوق حيث قال :

(تولستوى) تجرى آية العلم دمعها
عليك ويكسى بائس وفقير
وشعب ضعيف الركن زال نصيره
ومساكن يوم للضعيف نصير
ويندب فلاحون أنت منارهم
وأنت سراج غبوة منير
يعانون في الأكواخ ظلماً وظلمة
ولا يملكون البث وهو يسير
تطوف كهيسى بالحنان وبالرضى
عليهم وتغشى دورهم وتزور
ويأسى عليك الدين إذ لك له
ولللخادميه الناقمين فشور
أيكفر بالإنجيل من تلك كتبه
أناجيل منها منسذر وبشير
ويكفيك ألف فوق (ليل) ندامة
غداة مشى (بالعامرى) سرير
تناول ناعيك البلاد كأنه
يراع له في راحتك سرير
وقيل تولى (الشيخ) في الأرض هائما
وقيل (بدير) الراهبات أسير

وقيل قضى لم يغن عنه طبيبه
وللطب من بطش القضاء عذير
إذا أنت جاورت (المعرى) فى الثرى
وجاور (رضوى) فى التراب (ثبير)
وأقبل جمع الخالدين عليكما
وغالى بمقدار النظير نظير
جماجم تحت الأرض عطرها شذى
جناهن مسك فوقها وعبير
بين يباهى بطن (حواء) واحتوى
علمين بطن الأرض وهو فخور
فقل يا حكيم الدهر حدث عن البلى
فأنت عليهم بالأمور خبير
أحطت من الموت قديماً وحادثاً
بما لم يحصل منكر ونكير
طوانا الذى يطوى السموات فى غد
وينشر بعد الطي وهو قدير
تقدم عهدانا على الموت واستوى
طويل زمان فى البلى وقصير
كأن لم تضق بالأمس عنى كنيسة
ولم يؤونى ديارٌ هناك طهور
أرى راحة بين الجنادل والحصى
وكل فراش قد أراح وثير
نظرنا بنور الصوت كل حقيقة
وكنا كلانا فى الحياة ضير
إليك اعترافى لا لقس وكاهن
ونجواى بعد الله وهو غفور

فزهديك لم ينكره في الأرض عارف
ولا متعال في السماء كبير
بيان يشم الوحي من نفحاته
وعلم كعلم الأنبياء غزير
سلكت سبيل المترفين ولذت لي
بنون ومال والحياة غرور
آداة شتأى الدفاء في ظل شاهق
وعدة صيفى جنة وغدير
ومتعت بالدنيا ثمانين حجة
ونضر أيامى غنى وجبور
وذكر كضوء الشمس في كل بلدة
ولاحظ مثل الشمس حين تسير
فما راعنى إلا عذارى أجرنتى
ورب ضعيف تختمى فيسجير
أردت جوار الله والعمر منقض
وجاورته في العمر وهو نضير
صبا ونعيم بين أهل وموطن
ولذات دنيا كل ذاك نذور
بين وما يلدين ما الذنب خشية
ومن عجب تخشى الخطيئة حور
وأونس في داج من الليل موحش
ولله أنس في القلوب ونور
وأشبه طهر في النساء بمريم
فتاة على نهج المسيح تسير
تسائلنى هل غير الناس ما بهم
وهل حدثت غير الأمور أمور

وهل آثر الإحسان والرفق عالم
 دواعي الأذى والشر فيه كثير
 وهل سلكوا سبل المحبة بينهم
 كما يتصافى أسرة وعشير
 وهل آن من أهل الكتاب تسامح
 خليق بأداب الكتاب جدير
 وهل عالج الأحياء بؤسا وشقوة
 وقبـل فساد بينهم وشورور
 ثم أنظر وأنت المالىء الأرض حكمة
 أأجدى تنظيم أم أفاد نشر
 أناس كما تدرى ودنيا بحالها
 ودهر رخى تارة وعسر
 وأحوال خلق غابر متجدد
 تشابهه فيها أول وأخير
 تمر تباعاً في الحياة كأنها
 ملاعب لا ترخى لهن ستور
 وحرص على الدنيا وميل مع الهوى
 وغش وإفك في الحياة وزور
 وقام مقام الفرد في كل أمة
 على الحكم جم يستبد غفير
 وحوار قول الناس مولى وعبده
 إلى قولهم مستأجر وأجير
 وأضحى نفوذ المال لأمر في الورى
 ولا نهي إلا مايرى ويشير
 تساس حكومات به وممالك
 ويدعن إقبال له وصدور

وعصر بنوه في السلاح وحرصه
على السلم يجرى ذكرها ويدير
ومن عجب في ظلها وهو وارف
يصادف شعباً آمناً فيغير
ويأخذ من قوت الفقير وكسبه
ويؤوي جيوشاً كالخصي ويمير
ولما استقل البر والبحر مذهباً
تعلق أسباب السماء يطير



وقال حضرة الشاعر المشهور حافظ بك إبراهيم يرثي الفيلسوف
أيضاً :

رثاك أمير الشعر في الشرق وانبرى
لمدحك من كتاب مصر كبير
ولست أبالي حين أرثيك بعده
إذا قيل عني قد رثاه صغير
فقد كنت عوناً للضعيف وإنني
ضعيف ومالي في الحياة نصير
ولست أبالي حين أبكيك للورى
حوتك جنان أو حواك سعير
فاني أحب النابغين لعلمهم
وأعشق روض الفكر وهو نصير
دعوت إلى عيسى فضجت كنائس
وهز لها عرش وماد سرير
وقال أناس إنه قول ملحد
وقال أناس إنه لبشير

ولولا حطام رد عنك كيادهم
 لضقت به ذرعاً وساء مصير
 ولكن حماك العلم والرأى والحجى
 ومال إذا جد النزال وفير
 إذا زرت رهن المحبين (١) بحفرة
 بها الزهد ثاو والذكاء مشير
 وأبصرت أنس الزهد فى وحشة الليل
 وشاهدت وجه الشيخ وهو منير
 وأيقنت أن الدين لله وحده
 وأن قبور الزاهدين قصور
 فقف غم سلم وأحتشم إن شيخنا
 مهيب على رغم الفناء وقور
 وسائله عما غاب عنك فإنه
 عليم بأسرار الحياة بصير
 يخبرك الأعمى وإن كنت مبصراً
 بما لم تخبر أحرف وسطور
 كأتى بسمع الغيب أسمع كلما
 يجيب به أستاذنا ومجرب
 يناديك أهلاً بالذى عاش عيشنا
 ومات ولم يدرج إليه غرور
 قضيت حياة ملؤها البر والتقوى
 فأنت بأجر المتقين جدير
 وسموك فيهم فيلسوفاً وأمسكوا
 وما أنت إلا محسن ومجرب
 وما أنت إلا زاهد صاح صحبة
 يرن صداها ساعة ويطرب

(١) يريد أبا العلاء
المرى .

سلوت عن الدنيا ولكنهم صبوا
إليها بما تعظمهم وتمير
حياة الورى حرب وأنت تريدها
سلاماً وأسباب الكفاح كثير
أبت سنة العمران إلا تناحراً
وكدحاً ولو أن البقاء يسير
تحاول رفع الشر والشر واقع
وتطلب محض الخير وهو عسير
ولولا امتزاج الشر بالخير لم يقم
دليل على أن الإله قدير
ولم يبعث الله النبيين للهدى
ولم يتطلع للسريسر أمير
ولم يعشق العلياء حر ولم يسد
كريم ولم يبرج الثراء فقير
ولو كان فينا الخير محضاً لما ادعا
إلى الله داع إن تبلج نور
ولا قيل هذا فيلسوف موفق
ولا قيل هذا عالم وحبير
فكم في طريق الشر خير ونعمة
وكم في طريق الطيبات شرور
ألم تر أنى قمت قبلك داعياً
إلى الزهد لا يأوى إلى ظهر
أطاعوا أبيكم وسقراط قبله
وخولفت فيما أرتسى وأشهر
ومت وما مانت مطامع طامع
عليها ولا ألقى القياد ضمير

إذا هدمت للظلم دور تشيدت
له فوق أكتاف الكواكب دور
أفاض كلاماً في النصيحة جاهداً
ومات كلانا والقلوب صخور
فكم قيل عن كهف المساكين باطل
وكم قيل عن شيخ المعرفة زور
وماصد عن فعل الأذى قول مرسل
ولا راع مفتون الحياة ندير



رأى تولستوى فى المحجاب والزواج وما بينهما

قال الفيلسوف فى الطلاق والحجاب : إن السبب فى مسألة الطلاق التى تشغل الآن رأى العام فى أوربا هو التمدن الذى لم يقتبس الإنسان منه سوى الحمق والخلاعة هذا هو السبب الحقيقى فى ازدياد الطلاق نمواً كل يوم . فلا يمضى على زواج امرأة برجل ربح من الزمن حتى تقول له حاذر أن أتركك وأمضى إلى حال سبيلى . سرى ذلك من الربوع العالية فى المدن إلى أكواخ الفلاحين . فالفلاحة لأقل شىء تقول لزوجها خذ قمصانك وسراويلك لأنى تاركة لك وذهابة مع حبيبى يوسف الذى يفوقك حسناً وبهاء .

هذا لأن المرأة خلعت ثياب الحشمة واحترام الزوج وخرجت من دائرة الخضوع له تلك الواجبات التى ينبغى أن تبقى عليها حتى انقضاء الأجل .

على الرجل أن يكذب ويشغل وما على المرأة إلا أن تقيم فى البيت لأنها زوجة أو بعبارة أخرى إناء لطيف سريع الانثلام والانكسار .

على الرجل أن يراقب سلوك امرأته ولا يطلق لها العنان بل يحجبها فى البيت والبيت دائرة حرية واسعة للمرأة . ثم حتم هذه السطور بمثل روسى وما هو :

« لا تركزن إلى الفرس فى الغيظ واركن للمرأة فى البيت »

وقال عن الحب والزواج :

إن دوام الحب بين الزوجين من رابع المستحيالات . إنه قد يكون حب ولكن إلى وقت قصير جداً ثم لا يدوم إلا في الروايات فقط وأما بين الناس فعديم الاستقرار في قلبين معاً وكل رجل متزوجاً كان أو غير متزوج إذا اجتازت به غادة فتانة فأكثر ما يكون منه أن يوجه إليها التفاتة وقد يبذل بعضهم كل مرتخص وغال بعد ذلك في سبيل الوصول إليها . والمرأة من هذا القبيل كالرجل فإنها تجتهد للاتصال بأكثر من واحد دائماً ومادام يمكنها هذا الاتصال فهي نائلة أربها لاهماله .

إذا قلنا إنه يمكن للمرأة أن تحب زوجها طول الحياة فما مثلنا في ذلك إلا مثل من يوقد شمعة وهو يعتقد أنها تدوم مضيئة طوال الدهر .

إن الزواج أصبح في عصرنا هذا بيتناً محض خداع ولكنه لا يزال يوجد عند أولئك الذين يرون فيه سرّاً من أسرار الدين كالمسلمين والصينيين والهنود . أما نحن فلا نرى فيه غير تلك المقارنة الحيوانية .

الزوجان يخدعان الناس بأنهما يعيشان معا في ارتباط عائلي حقيقى بالزواج . يظهر كذلك أمرهما في الخارج لكل من رآهما وإنهما سيبقيان في تمام الوفاق مادامت الحياة والحقيقة أنهما يعيشان على قاعدة تعدد الزوجات ولكن من الجانبين وبهذا التكافؤ قد يتفقان زمناً . وعلى الأكثر إن كليهما في الشهر الثاني يهدد صاحبه بالطلاق وقبلما يتمكنان من وسائله . وعن ذلك تصدر الأفكار الخبيثة الجهنمية التي ينجم عنها إطلاق الرصاص انتحاراً أو قتلاً أو دس السم وما أشبهه . وقال في الفساد المنتشر بين الناس : وتفسد أخلاق الشباب في المدرسة لأن جميع رفاقه فسده الأخلاق يصحبونه معهم إلى أندية الرجس فيفقد طهارته وعفته من حيث لا يدري إن في

فعله هذا ما يخالف الآداب والفضيلة . تفسد أخلاق الشباب من أول نشأته لأنه لا يسمع من مرشديه أن الفسوق محرم بل بالعكس يسمع أن صحة الجسم تستلزم بعض الشيء وجميع المحيطين به يقولون إن الوقوع شيء طبيعي قانوني مفيد للصحة وفاكهة الشباب الحلوة . لهذا كله لا يدرك الشباب أنه سائر في طريق الضلال بل يقطع الطريق الطبيعية التي يسير فيها كل صحبه وأفراد الوسط الذي يعيش فيه . فيبدأ بالفحشاء كما يبدأ بيشرب المسكر والتدخين .

وأنا أعرف أمهات كثيرات يعتنين بأمر أولادهن في هذا الطريق رعاية لصحتهم . بقى على الشباب أمر واحد يخشى عاقبته من ارتكاب الموبقات وهو العدوى من المرض المشهور غير أن الحكومة التي تهتم بصحة رعاياها لم تدع مجالاً للخوف فإنها بهمة فائقة تعتنى اعتناءً تاماً بالمواخر . والأطباء كهنة أصنام العلم يراقبون المومسات لقاء أجور يتقاضونها وهم من جهة أخرى يفتنون للشباب بضرورة الاجتماع ولو مرة في الشهر مراعاة لقانون الصحة .

فهم على ذلك يرتبون سير الفحش ترتيباً مدققاً ويضبطون دوائره ضبطاً « محكماً » .

ليت الحكومة التي تهتم اهتماماً عظيماً بإزالة الزهري معالجة تستعمل جزءاً من مائة من ذلك الاهتمام من إزالة المومسات فيصبح إذ ذاك في خير كان .

وقال في حفلات الرقص الساهرة : يجرى بيننا وتحت نظرنا من الأمور السافلة ما لا طاقة لدى ناموس وشرف على احتياله يزورنا رجل لا نجهل من سيرته شيئاً فنستقبله أحسن استقبال وعندما يدخل قاعة الضيوف يجالس أختي أو ابنتي أو قرينتي حيث يتركني وشأني أو أتركه وشأنه . وربما أعرف من

سلوكه وتصرفاته ما أعرف فكان يلزم والحالة هذه أن أتقدم إليه عند قدومه واتنحى به جانباً وأقول له هامساً إلى ياصاح أعرف أحوالك وأين تصرف لياليك ومع من فليس لك عندنا مكان لأن فتياتنا طاهرات .

كذا كان ينبغي أن يفعل كل واحد منا ولكننا نجري على العكس مما تقدم . فإذا اجتمعنا مع هذا الرجل في ليلة راقصة كان له أن يرقص مع أختي أو ابنتي ويعانقها ويخاصرها نراه بأعيننا ونشاهد حركاتهما معا غدواً أو رواحاً وميلاً واهتزازاً ولا تشمئز منه نفوسنا بل نتساءل إذا كان حراً لنسعى في تزويجه بإحدى بناتنا ولو كان أثر المرض بادياً عليه .

ثم قال عن الأزياء وحالة الطبقة العالية من نساء أوروبا :
إننا لو أمعنا النظر في معيشة نساء الطبقات العليا كما هي من قلة الحياء والخلاعة لا نجد ثم فرقاً بين البيت الذي يضمهن ونادى مومسات مختلط .

ولكن الناس لا يوافقونني على كلامي هذا فأنا إذا أقيم لهم برهاناً حسياً :

هم يقولون إن نساء هيئتنا الاجتماعية يعشن بحالة تخالف معيشة المومسات ، وأنا أخالفهم في ذلك وأقول : إذا كانت النساء تختلف في حالة المعيشة الداخلية فمن الحقائق المقررة أن ما يكون مخارجاً منهن أثر المعيشة في الداخل وهذه يلزم أن تختلف معيشة المومسات من كل وجه ولكن أنا لا أرى فرقاً كبيراً بين معيشة الفريقيين في الخارج . قابلوا أيها الناس بين المومسات وبين نساء الطبقة العليا تجدهن متفقات في الهيئات والأزياء والروائح العطرية وإعراء السواعد والمناكب والصدور ووضع الوسادة خلف الظهر أينما جلسن وأينما ركبن وفي اقتناء أنفس الجواهر والحجارة الكريمة اللماعة وفي المراقص والغناء .

وكما أن المومسات يستعملن كل الوسائط الفعالة لغواية
الشبان وجذبهم واستمالة النفوس حتى يصبوا هن كل راء كذلك
نساء الطبقات العالية يفعلن في وسطهن .



النبي محمد

جاء في إحدى المجلات الروسية* تحت هذا العنوان ما يأتي بالحرف الواحد :
في شبه جزيرة العرب المجاورة لفلسطين حيث كان الناس يدينون بالديانتين المسيحية واليهودية ظهرت ديانة عظيمة أساسها الاعتراف بوحدة الله وهذه الديانة تعرف بالمحمدية أو كما يسميها أتباعها الإسلام وقد أنتشرت هذه الديانة انتشاراً سريعاً بين قبائل متعددة وأم كثيرة حتى بلغ عدد منتحليها في هذا العصر نحو مائتي مليون نفس .

مضى على ظهور الديانة الإسلامية ١٣٣٠ عاماً أو بعد ظهور الديانة المسيحية بنحو ٦٠٠ سنة ومؤسس هذا الدين هو العربي محمد .

كان العرب أقرباء اليهود باللغة والجنس قبل ظهور الرسول وثنيين يعبدون آلهة متعددة وأرواحاً صالحة وشريرة وكانت تقسم إلى قسمين عائلية ووطنية فكان كثير من العائلات تصنع لها صنماً خاصاً تعبده وكان في كل قبيلة صنم عام تسجد له برمتها ولكن العرب عموماً كانوا يعتقدون بوجود آله يعتبرونه أباً لهذه الأرباب ويسمونه « الله العلي العظيم » .

وكانت اعتقادات العرب الدينية مملوءة بالخرافات وديانتهم مبنية على القسوة والانتقام والتعادي .

* (العرب) هذه اقوال كاتب روسي مسيحي منصف نشرها بين قومه لإطلاعهم على جوهر الدين الإسلامي وما فيه من الحقائق الباهرة وهي حرية بالاعتبار لصدورها من كاتب فاضل يقول الحق ولا غرابة فرجال الفضل المنصفون وجدوا في الدنيا لتقرير الحقائق ودفع التهم وإرشاد الناس إلى الحقيقة الناصحة التي لبثوا أعماماً طويلاً وهم في ريبة منها لما قرأوه عنها من الاختلافات التي بثها في نفوسهم بعض الكتاب الذين يجرون وراء تيار الأهواء ويخالفون ضمائرهم لإرضاء فريق من الناس وهي خلة ذميمة في الكتاب الذين هم مصاييح الأزمنة والواجب يقضي عليهم بتبديد غياهب الجهل وإنارة الأفكار بنبراس الحقيقة فإذا سار العلماء والكتاب على نمطه هذا الكاتب الروسي أمادوا العالم فوائد لا يقدرها إلا كل ذى شعور حتى يتألم لتنايد الناس وتباغضهم .

ولقد انقسمت بلاد العرب إلى ثلاث مقاطعات وهي :
اليمن ذات التربة الخصبة ويعمل أهلها بالزراعة وتربية المواشى ثم
نجد ويسكنها قوم رحل يتوفرون على تربية الماشية والغزو والنهب
ثم الحجاز أهلها أرباب تجارة مع مصر وسوريا والجهات
الأخرى وعاصمة هذه الجهة مكة وهي المدينة المقدسة عند
جميع القبائل العربية ولكل قبيلة فيها أصنام خاصة بها وفيها
الكعبة المعبد العظيم الذى يحفظ فيه الحجر الأسود الذى تقول
تقاليد العرب بشأنه إن الله سبحانه وتعالى أنزله على إبراهيم جد
العرب لأنهم يعتقدون أنهم من نسل إسماعيل ابن هاجر .

وكان العرب يزورون مكة فى كل عام وحتى يأمنوا على
نفوسهم من القتل والسلب فى خلال هذه الزيارة عينوا أربعة
أشهر فى العام حرموا فى أثنائها سفك الدماء والغزو والسرقة .
ولما وحد النبى محمد قبائل العرب وأثار أفكارهم وأبصارهم
بمعرفة الآله الواحد هذب أخلاقهم ولين طباعهم وقلوبهم
وأصلح عاداتهم البربرية الهمجية وجعلهم أمة مستعدة للرق
والتقدم .

كان العرب قبل ظهور النبى محمد يقدمون لآلهتهم الذبائح
البشرية من أسرى الحرب ومن أولادهم — فيمكدون بناتهم —
ويقتلون عدوهم وعلى الجملة فقد كانت أخلاقهم مبنية على
القساوة والانتقام وسفك الدماء وقد قضى النبى محمد على ذلك
جميعه ونادى بعبادة الخالق سبحانه وتعالى وساوى جميع العرب
أمام الله وحرم الانتقام ومنع سفك الدماء وهذه الأعمال
العظيمة التى قام بها محمد تدل على أنه من المصلحين العظام
وعلى أن فى نفسه قوة فوق قوة البشر .

ولد النبى محمد عام ٥٧١ من أبوين فقيرين وقد توفى والده
قبل ولادته بشهرين وتوفيت والدته فى العام السادس من عمره

فكفله أولاً جده ثم عمه الذى كان يصحبه معه فى سفراته التجارية .

وكان النبى محمد فى حدائته يخدم أعمامه فى رعى ماشيتهم ويقود جمالهم .

ولما بلغ العام العشرين دخل فى خدمة قريبته الأرملة خديجة من ذوات الثروة الواسعة بصفة وكيل لها وبعد مرور سنة قضاهما فى خدمتها تزوجها مع أنها كانت أكبر منه بعشرين عاماً وقيل بخمسة عشر .

كان محمد ذا فكر نير وبصيرة وقادة واشتهر بدمائة الأخلاق ولين العريكة والتواضع وحسن المعاملة للناس وأشهر بميله للأبحاث الدينية حتى إنه كان يناقش اليهود والنصارى ومن هذه المناقشات عرف أشياء عن موسى والمسيح وعرف بعض الشيء من تعاليم التوراة والإنجيل وعرف أنه يوجد إله عظيم لم تصنعه الأيدي البشرية (١) .

مضت على محمد أربعون سنة قضاهما بسلام وطمأنينة وكان جميع أقاربه يحبونه محبة شديدة وأهل مدينته يحترمونه احتراماً عظيماً لما هو عليه من المبادئ القويمة والأخلاق الكريمة وشرف النفس والنزاهة وكانت ثروة زوجته تكفيه مؤونة الكدح للمعاش فعاش رخاء وهناء ولكن من جهة أخرى كانت فى نفسه عواطف دينية قوية تدفعه إلى القيام بعمل عظيم ألا وهو إخراج أمته ومواطنيه من دياجير الجهل وظلمات الخرافات الدينية .

وصل الاعتماد الدينى بمحمد إلى الاعتراف بأن موسى وعيسى من أنبياء الله ولكنه لم ترقه بعض عقائد الديانتين المسيحية واليهودية .

ولطالما انقطع محمد فى حدائته إلى الجبال المجاورة لمكة حيث

(١) (المعرب) إن الذى نعرفه من كتب الإسلام والسير النبوية لا يثبت هذه الرواية .

يقيم شهراً متعبداً وكان شعوره الدينى يزداد عاماً فعاماً أيقن فى النهاية أن أرباب أمته لا شعور لها ولا قوة وأن الإله الحقيقى واحد وهو الله منشىء الكائنات ومدبرها بقوته غير المحدودة ففى سنة من سنوات اعتزاله تواترت عليه ذات يوم الأفكار الدينية وبعد ذلك اضطربت لها نفسه اضطراباً شديداً فدخل مغارة ونام فيها وفى خلال نومه رأى رؤيا دعاه فى خلالها هاتف ليكون نبياً يدعو أمته لمعرفة الإله الواحد ولما استيقظ من نومه عاد إلى منزله مضطرباً وبعد عدة أسابيع رأى رؤيا أخرى دعاه فيها صوت ذلك الهاتف ليكون نبياً لأمته فعزم بعد هذه الرؤيا بدون تردد على دعوة أمته إلى معرفة الحق وصمم العزم على تطهير البلاد من الأصنام .

ومن أراد أن يحكم على الدين الإسلامى ومبادئه وروح تعاليمه فليطالع الآيات الآتية التى اقتطفناها من القرآن وهى :

سورة المائدة (٦٩)

﴿ أن الدين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

سورة الرحمن (٢٦ ، ٢٧)

﴿ كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الاجلال والاکرام ﴾

سورة البقرة (٢٨٦)

﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ .

سورة التوبة (٦٠)

﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم ﴾ .

سورة آل عمران (١١٤ ، ١١٥)

﴿ ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله أناء الليل وهم يسجدون ، يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات

وأولئك من الصالحين ، وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله
عليم بالمتقين ﴿

سورة التوبة (١٢٩)

﴿ فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت
وهو رب العرش العظيم ﴾ .

سورة الأنبياء (٢٢)

﴿ لو كان فيما آلهة غير الله لفسدنا ف سبحان الله رب
العرش عما يصفون ﴾

سورة البقرة (١٥١)

﴿ كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا
ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا
تعلمون ﴾ .

سورة الانعام (١٤)

﴿ قل أغير الله اتخذ وليا فاطر السموات والأرض وهو
يطعم ولا يطعم قل إلى أمرت أن أكون أول من أسلم ولا
تكونن من المشركين ﴾ .

سورة آل عمران (١٣٠)

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة
واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ .

سورة المائدة (٨٢ ، ٨٣)

﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين
أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا
نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وانهم لا يستكبرون ،
وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع
مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آما فاكبتنا مع
الشاهدين ﴾ .

سورة الاسراء (٢٩)

﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل
البسط فتقعد ملوما محسورا ﴾ .

سورة الاسراء (٢٦)

﴿ وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر
تبذيرا ، إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان
لربه كفورا ﴾ .

سورة البقرة (٢٧)

﴿ الذين يتقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون

ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون ﴿

سورة آل عمران (١٩)
(٢٠٠)

﴿ إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب ، فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأمين أسلمم فإن أسلموا فقد اهتدوا وأن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ﴿

سورة النساء (١)

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً ﴿

سورة محمد (٣٦)

﴿ إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم ﴿

سورة البقرة (١٣٦)

﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴿

سورة البقرة (٢١٣)

﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴿

سورة البقرة (٢٧٤)

﴿ الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴿

﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاج كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسه نار نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم ﴾ .

سورة النور (٣٥)

﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون ، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدین زینتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمورهن على جيوبهن ولا يبدین زینتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو بناتهن أو أخواتهن أو نساءهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ .

سورة النور (٣٠) (٣١)

﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ .

سورة التحريم (٦)

﴿ يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فقلوا للذين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم ﴾ .

سورة البقرة (٢١٥)

﴿ ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين ، أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ﴾ .

سورة البقرة
(٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤)

وقد صدقت عائلة النبي محمد برسالاته وكذلك على وزيد

وانضم إليه أبو بكر الذي غدا من أكبر أنصاره وأكد أكثر مؤرخي العرب أن أبا بكر أول من أسلم من الرجال وأن خديجة أول من أسلمت من النساء .

وقد أراد النبي محمد في بدء رسالته أن يسير على عادات قبيلته فدعا كبار عشيرته وأعلنهم برسالته فلما سمعوا منه مقالته استكبروا منه ذلك وأخذ الغضب منهم مأخذاً عظيماً لأنهم انتظروا أن يسمعوا منه كلاماً عن تجارة أو غزوة وقال له أبو لُهب أحد أعمامه بلهجة الغضب ألهذا دعوتنا فاختنق واصمت ثم تفرقوا صاخبين هازئين .

ثم أخذ النبي محمد يجاهر برسالته فعاب دين قبيلته وسفه أحلامها وسب آلهتها فأساء بذلك إلى أشرف القبيلة ورأوا في رسالته خطراً على البلاد وأهلها ولكن لم يجسر أحد منهم أن يقاومه خيفة من وقوع النزاع والشقاق وفي سنى رسالته الأولى لم يصدق بنبوته إلا ٤٣ شخصاً أكثرهم من الفقراء والعبيد الذين سامهم مواليتهم صنوف الاضطهاد والهوان فأخذ إذ ذلك أبو بكر أعظم أنصار النبي محمد يفتدى أولئك العبيد بأمواله واشترى مراراً بماله المعذيين لإنقاذهم من الآلام .

وفي خلال ذلك طلب القريشيون من أبي طالب عم النبي محمد لكي يرجع ابن أخيه عن كلامه وحاله فنصح له أبو طالب ولكن النبي أجاب بقوله « لو أعطوني الشمس يميني والقمر بشمالي لكي أترك هذا الأمر قبل أن ينصره الله أو أهلك أنا في سبيله فلن أتركه » ولما قال هذا أراد الخروج فمسك به أبو طالب وقال له ؟ جاهر بأمر رسالتك وعلم ما تريد فلست بمسلمك لهم يا ابن أخي ولن أتركك أبداً .

وفي عام ٦١٧ توفيت خديجة وبعد وفاتها بعدة أسابيع توفي أبو طالب أيضاً وبذلك انقطعت علاقات النبي محمد القلبية مع

مكة فغادرها إلى المدينة ولم يمض على إقامته فيها زمن طويل حتى آمن برسالته كثيرون ألفوا جماعة أطلق عليها جماعة المؤمنين اشتهروا بالتقوى والصلاح وحسب تعاليم الاسلام كانوا جميعهم متساوين في كل شيء ولم يكن بينهم أثر للسيادة والانقسام إلى طبقات متفاوتة في الحسب والنسب كما كان الحال عليه عند القبائل العربية وقد ضربت السكينة بين جماعة المؤمنين أطنابها ورفعت المساواة قباها فتناسوا ما كان بينهم من الحزازات والضغائن وأصبحوا يعيشون كنفس واحدة وكان الواجب يقضى عليهم أن يدافعوا عن بعضهم بعضاً ويردوا هجمات الغير المؤمنين .

وقد جرت عدة وقائع حربية بين أنصار النبي وأهالي مكة انتهت بانتصار الأنصار الذين دخلوا مكة ظافرين وقد طاف النبي وهو على ناقته حول الكعبة سبع مرات ومس الحجر المقدس بعصاه ثم أمر بتحطيم جميع الأصنام التي كانت منصوبة حول الكعبة وأعلن أن جميع الناس متساوون أمام الله عز وجل ثم أمر المكيين أن يحطموا الأصنام الموجودة في منازلهم وقد لبي الجميع هذا النداء لوثوقهم بضعف آلتهم وأنها لا قوة لها .

وفي آخر رحلة رحلها النبي إلى مكة جمع حولها الحجاج وذكرهم بجميع وصايا الإسلام ونصح لهم بأن يعيشوا مع بعضهم عيشة سلام وأمان وأن يكونوا إخواناً وأن يتناسوا الأحقاد القديمة ويكفوا عن سفك الدماء والأخذ بالثأر — وأوصاهم خيراً بزوجاتهم وعبيدهم وفي الختام قال : إننى قد قمت بما عهد لى .

وبعد عدة شهور مضت على مغادرته مكة انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء وكانت وفاته في اليوم الثامن من شهر يونيه سنة ٦٣٨ في العالم الثالث والستين من سنى حياته وقبل وفاته

أعتق جميع عبيده .

إن محمداً نبي الإسلام الذي يدين به الآن أكثر من مائتي مليون نفس قد قام بعمل عظيم جداً فإنه هدى الوثنيين الذين قضوا حياتهم بالحروب الأهلية وسفك الدماء وتقديم الضحايا البشرية إلى معرفة الإله الواحد وأثار أبصارهم بنور الإيمان وأعلن أن جميع الناس متساوون أمام الله سبحانه وتعالى والحق الذي لا مرأى فيه أن النبي محمداً قام بعمل عظيم وانقلاب كبير في العالم ومن أراد أن يتحقق ما هو عليه الدين الإسلامي عليه أن يطالع القرآن الكريم بإمعان وإذ ذاك يصدر حكماً مبنياً على الحقائق الباهرة التي يتضمنها وقد جاءت فيه آيات كريمة تدل على روح الدين الإسلامي السامية فمنها الآية الكريمة القائلة :

﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾ .

أقوال الكتاب

في الإسلام والمسلمين

في روسيا جمعيات عديدة دينية أنشئت لتبشير الأمم الإسلامية بالدين المسيحي مثل قبائل الكيرجيز والتتر والشركس وغيرها ويبلغ عدد المسلمين في روسيا أوروبا نحو ستة عشر مليوناً ونصف هذا عدداً مسلمي القوقاس وأواسط آسيا الخاضعين للحكومة الروسية وحسب آخر إحصاء عام أجرى في روسيا عام ١٩٠٧ بلغ عدد المسلمين ١٠٦ في الألف من مجموع السكان وإذا راجعنا تاريخ المسلمين في روسيا نجد أنه مرت عليهم أزمان قاسوا فيها صنوف الأضطهاد الديني وارعمو مراراً على ترك دينهم وأضطر منهم ألوف أذ يتنصروا بالاسم ونقلوا أسماءهم من سجلات المسلمين إلى سجلات المسيحيين ولكنهم تنصروا اسماً وهم لا يعرفون شيئاً من الديانة المسيحية سوى تسميتهم بجنا وبطرس ومرقس ومتى وفي الوقت نفسه لبثوا محافظين على عقائد الدين الإسلامي والأخلاق الإسلامية ولبثت نساؤهم محافظة على الحجاب وأذكر أنه منذ ثمانى سنوات تمكن بعض نوابغ المسلمين الروسين وأعيانهم من استصدار أمر قيصرى بإعطاء الحرية للمسلمين المنتصرين اسماً أن يرتدوا للدين الإسلامى فأرتد منهم في أيام قليلة نحو أربعين ألفاً ونيف وكانت أيام الارتداد هذه أيام أعياد واحتفالات شائقة بين المسلمين أقاموا فيها الزينات والولائم ونحروا فيها الجزر وأكثروا من الصدقات على الفقراء

والمحتاجين وأقاموا الصلاة في جميع مساجد روسيا .
وأهم مسألة يشتغل فيها النواب المسلمون في مجلس الدوما
هى توسيع الحرية للمسلمين وتخويلهم حق الدفاع عن دينهم
كلاماً وكتابة والرد على جماعة المبشرين الذين يصدرون في كل
عام مئات من الكتب ويكتبون في مجلاتهم وجرائدهم المطاعن
على الدين الإسلامى وكان المسلمون من قبل لا يصح لهم أن
يردوا على تلك المطاعن أو يدحضوها بالبراهين الساطعة والأدلة
الدامغة بل كانوا مرغمين على سماع تلك المطاعن وهم صامتون
وقد أخرجت صدورهم وتغلغل الحقد في قلوبهم ولكن بعد
الجهد والعناء استطاع النواب المسلمون في مجلس الدوما
بمساعدة بعض النواب المسيحيين المنصفين الذين طهرت قلوبهم
من أدران التعصب الذمى واشربت أفئدتهم بحب الإنصاف ونشر
أولوية المساواة من استصدار قرار من المجلس المذكور صادق
عليه جلالة القيصر نقولا الثانى يتضمن الأمور الآتية :

أولاً — منح المسلمين حق الدفاع عن دينهم والرد على
أقوال المبشرين وغيرهم من الذين يطعنون على الدين
الإسلامى .

ثانياً — منحهم الحق في إصدار جرائد ومجلات باللغة
العربية وكانوا من قبل لا يستطيعون إصدار جريدة أو مجلة إلا
باللغتين الروسية والتركية .

ثالثاً — منحهم الحق في إنشاء مدارس وكتاتيب بجوار
المساجد تعلم العلوم باللغتين التركية والعربية وكانوا من قبل
مجبورين على تدريس اللغة الروسية في مدارسهم .

رابعاً — تخويلهم الحق في تعيين الأئمة ورجال الدين من
أشخاص يعرفون اللغتين التركية والعربية وكانت الحكومة من
قبل لا تسمح بتعيين المسلمين في الوظائف الدينية إلا إذا كانوا

يجيدون اللغة الروسية وأمثال هؤلاء قليلون بين رجال الدين المسلمين ولذلك كانت الحكومة تعين رجالاً جهلاء في الدين وتهمل المستحقين لعدم معرفتهم اللغة الروسية .

خامسا — تخويلهم حق إدارة مدارسهم الدينية وأوقافها وكانت من قبل هذه المدارس تديرها وزارة المعارف الروسية .
سادسا — منع المسلمين من الإتيان ببيع المشروبات الروحية .

سابعا — منع المسلمات من إنشاء مواخير للفساد وإدارتها .
ثامنا — إعطاء المسلمين الحرية في قفل مخازنهم ومحلات متاجرهم يوم الجمعة وعدم إرغامهم على قفلها يوم الأحد .
تاسعا — تعيين أئمة من الجيش للقيام بخدمة الجنود المسلمين الدينية .

عاشرًا — تقديم مأكولات للجنود المسلمين ليس فيها طعام محرم في الدين الإسلامي .
حادى عشر — منح المسلمين الحرية في إنشاء الجمعيات الخيرية والنوادي الأدبية العلمية لتعمل على ترقية المسلمين مادياً وأدبياً .

وبعد صدور الأمر القيصرى بالتصديق على هذا القرار انشرفت صدور المسلمين في روسيا وتنسموا رائحة الحرية التى ساعدتهم على السير في طريق الرقى الأدبى فأنشأوا الجرائد العديدة بلغتهم العربية فأصبح عندهم نحو مائتى جريدة ومجلة سياسية وأدبية وتاريخية ودينية بعد أن كانت جرائدهم قليلة العدد جداً وألغى كثيرون القسم الروسى من جرائدهم وأنشأوا أيضاً كثيراً من الجمعيات الخيرية والأدبية والمدارس العديدة وأصبحوا يرفلون في رياض الحرية .
على أن كثيرين من كتابهم الفضلاء مازالوا يشكون من

جمود المسلمين في روسيا وتمسكهم بعقائد وتقاليد قديمة وأنه يلزمهم وقت طويل لمجاعة الأمم الغربية في مضمار الحياة وإقبالهم على تعلم العلوم العالية وكثيرون من أولئك الكتاب الأفاضل أخذوا يؤلفون الكتب ويكتبون المقالات في الجرائد والمجلات يحثون بها أبناء دينهم على طرح نير الجمود والاستكانة ويرشدونهم إلى طريق الرق وبوجه الإجمال فإن مسلمي روسيا نهضوا في هذه الأيام نهضة شريفة تبشر بحسن الاستقبال وخير المآل إن لبثوا سائرين على محور الهمة والنشاط حقق الله آمالهم .

على أن الحكومة الروسية من قديم الزمان كانت وما زالت ولن تزال عاملة على معاملة المسلمين في بلادها بالحسنى ومنحتهم كثيرا من الحقوق لم تمنحها لغيرهم من الأمم المستظلة بالراية الروسية ولا عجب في ذلك فإن المسلمين في روسيا أظهروا في حوادث كثيرة على أنهم من أشد الناس إخلاصاً لحكومتهم وطالما دافعوا عنها بنفوسهم وأموالهم واشتهرت الجنود الإسلامية في الجيش الروسي بالبسالة والإقدام والدفاع عن حقوق الوطن وقد عرف فيهم ذلك قياصرة روسيا فاختاروا حرسهم الخاص منهم ومنحوهم حقوقا عديدة .

والحكومة الروسية من قديم الزمان تحافظ على شعور المسلمين الدينى وتعاملهم في الحقوق المدنية بحسب الشريعة الإسلامية وقد نشرت في العدد ٣٦٠٥ من جريدة المؤيد الصادر يوم الاثنين الموافق ١٠ مارس سنة ١٩٠٢ مقالة تحت عنوان « الشريعة الإسلامية في المحاكم الروسية » وجدت إظهاراً للحقيقة أن أنشرها هنا وهى معربة عن جريدة نوفويه فريميا أشهر الجرائد الروسية ولسان حال وزارة الخارجية الروسية وهاهى بنصفها وفصها :

لا توجد مقاطعة في أنحاء المعمورة تقضى فيها حقوق أهلها بشأن الإرث حسب نصوص شريعة الديانة المتدين بها أهل تلك المقاطعة الخاضعون لمملكة متدينة بدين يخالف دينهم . ففي الجزائر والهند تستعمل محاكمها الشريعة الإسلامية في قضايا الوطنيين الأصليين فقط وأما في سائر أنحاء فرنسا وإنجلترا فإن المسلمين يرثون حسب نظام قانون نابليون والقوانين المدنية للبلاد التي يقيمون بها . غير أن روسيا شدت عن هذه الطريقة ففيها وحدها يرث المسلمون حسب نصوص الشريعة الإسلامية وقضاة محاكمها مأمورون بالسير على تلك الشريعة المرعية في محاكمنا من عهد بعيد ومصرحة في البند ١٣٣٨ وما بعده من بنود المجلد العاشر من القانون المدني ومشروحة شرحاً واضحاً لا يدع أثر للريب في النفوس .

ومع ذلك فإنني أقول لقد حان لحكومتنا أن توجه التفاتها إلى الصعوبات التي تنجم عن استعمال تلك الشريعة التي لا يبررها بند القانون القائل باستعمالها بالنظر لعدم مطابقتها للعقل .

ولقد ظهر من آخر إحصاء أن نسبة عدد المسلمين ٦١ في المائة من جميع الأهالي الروس (١) منهم ثلاثة في المائة من مسلمي أوروبا بروسية والباقيون في أملاك روسيا في آسيا ثم إنه في بعض ولايات روسيا يكثر عدد المسلمين حتى إنه يبلغ عدد نصف الأهالي كولاية أوفان وفي بعضها يقل عددهم .

ففي قضايا ميراث ومخاصمات المسلمين تسير المحاكم الروسية حسب نصوص الشريعة المحمدية وذلك مما يدعونا إلى إنعام النظر في هذا الأمر .

إن المسلمين القاطنين في روسيا أوروبا يخضعون ديناً لرئيسين روحيين عظيمين أحدهما يقيم في ولاية القرم والثاني في ولاية أورنبرج وأما مسلمو القفقاس فينقسمون إلى قسمين

* هذا على حسب إحصاء أجرى عامه ١٩٠٠ ولكن هذا العدد تزايد جداً .

سنية وشيعية يقيم رئيساهما في مدينة تفليس عاصمة تلك البلاد ورؤساء الدين هؤلاء يقضون في مصالح المسلمين من زواجهم وأحكام دينهم وإرثهم وإنما في قضايا الإرث يكونون كوسطاء للتراضى والصلح بين الورثة وإذا لم يستطيعوا ذلك فالورثة يترافعون أمام المحاكم الروسية التي تحكم لهم حسب نصوص الشريعة الإسلامية كما قدمنا وإذا أجلنا الطرف في هذا النظام المطابق لنصوص المجلد العاشر بخصوص إرث المسلمين فلا يبقى في نفوسنا ريب أن هؤلاء يترافعون في مسائلهم الدينية لدى أمتهم الذين يؤلفون محكمة لا يقبل حكمها النقض والإبرام وأما في القضايا العامة وعلى الأخص قضايا الإرث فإنهم يترافعون أمام المحاكم الروسية التي تقضى لهم أيضا حسب نصوص شريعتهم المرعية الإجراء والموضوعة بين بنود قوانيننا الخاصة بالمسلمين وعليها ذبول شتى بخصوص إرث المسلمات لأزواجهن وهنا نورد نص الفقرة الأخيرة من قانوننا الذي يصرح بذلك في قوله « في قضايا إرث المسلمين وكذلك في جميع قضاياهم العامة ينبغي على القضاة الروس أن يسيروا طبقا لنصوص الشريعة الإسلامية ولا أدرى لماذا تفضل حكومتنا المسلمين على اليهود من رعاياها مع أن تلمودهم يتضمن شرائع مختلفة ونواميس متعددة لجميع ظروف وأحوال اليهود المدنية والدينية وإذا ، فرضنا بأن ذلك التفضيل ناجم عن حصول المسلمين عندنا على حقوق وامتيازات أكثر من اليهود وأن شرائع التلمود غير وافية أو تامة كالشريعة المحمدية فإنه كان يمكننا الوقوف عند هذا الحد في الكلام ونرضى بسير الأحكام التي ذكرناها على محورها ومجراها غير أن محاكمنا لحد الآن لم تتمكن من السير على قاعدة معلومة محدودة لكي تقوم بما عهد إليها من الواجب الملقى على عاتقها ذلك لأن قوانين الشريعة

الإسلامية غير مرتبة الوضع ومن جهة أخرى فإنه لا توجد في بنود نظاماتنا صراحة ترشد القضاة إلى طريقة معلومة ليسيروا بموجبها وتلك النظامات الإسلامية المعروفة بالشرعية تؤلف مجموعة أجوبة مختلفة لأسئلة متعددة بخصوص الحقوق والأحكام قد وضعها ألوف من المشرعين المسلمين وكلهم من رجال الدين الذين وضعوها باللغة العربية طبقاً لأحكام القرآن ونصوصه وقد اجتمع من هذه القواعد والأجوبة منذ ظهور الإسلام حتى يومنا هذا عدد لا يحصى حاسب وقد اجتهد علماء العرب في جمع شتات قواعد تلك الشرائع في مجموعات خاصة بقصد نشرها وتسهيل وجودها والرجوع إليها عند ميس الحاجة وترجم أكثر هذه الكتب إلى اللغتين الفرنسية والإنكليزية وإنما لم يترجم منها إلى اللغة الروسية سوى الكتب الآتية :

أولاً — مجموعة عقائد الشيعيين وشرائعهم ترجمة الاستاذ ميرزا قاسم بك في عامي ١٨٦٢ و ١٨٦٣ .

ثانياً — كتاب شريعة السنين ترجمة غورديكوفى عام ١٨٩٣ تحت اسم الهداية .

ثالثاً — نظام إرث المسلمين ترجمة العالم موخين عام ١٨٩٨ . وهذه الكتب الثلاثة نافعة جداً للدرس الشرعية الإسلامية .

ثم إنه كما أشرنا آنفاً بأن بنود المجلد العاشر من النظام المدني الروسى لاتصرح للمحاكم الروسية صراحة تامة بالاستناد على نظام إسلامى معروف أو مترجم للغة الروسية ولذلك كان القضاة في أكثر القضايا يقعون في أشد الارتباك ولا يجدون لهم مخرجاً من تلك الحالة الحرجة سوى الكتابة إلى أئمة المسلمين يسألونهم حل مشكل تلك القضية فيجاوبونهم عليها بذكر فقرة

الشريعة الموافقة لحل تلك القضية حلاً صحيحاً عادلاً حتى
بينوا حكمهم عليها ولكن شوهد كثيراً بأن تلك الفقرات
المرسلة من رجال مختلفين لحل قضية واحدة تناقض الواحدة
الأخرى . وعدا ذلك فإن نظام الإرث واسع جدا وهو أعقد
فصول الشريعة ولذا جعل علماً مستقلاً لا يدركه إلا بعض
أئمة المسلمين الذين يسمون القسام والقضاة الروسيون يصعب
عليهم درس هذا العلم الواسع أو درس الشريعة الإسلامية
لجهلهم اللغة العربية الموضوعية بها .

ثم إنه لا يتسنى لإحدى المحاكم أن تصدر حكماً بإرث ولم
يرضخ له المترافعون الورثة ورفعوه إلى محكمة أعلى فربما نقضت
هذه المحكمة بعض الحكم الابتدائي استناداً على فتاوى أئمة
المسلمين الموجودين بالقرب منها وبذلك تخالف الحكم الأول
الذي أصدرته المحكمة الابتدائية طبقاً لفتاوى أئمة المسلمين
الذين أفتوا لها بتلك الفتوى وكانت فتواهم مخالفة لفتوى
الآخرين وكثيراً ما تتصل تلك القضايا إلى مجلس الشيوخ الذي
لا يجد أيضاً إلى حلها سبيلاً سوى الاستناد على فتاوى الأئمة
وبالاختصار فإن قضايا إرث المسلمين وغيرها تسبب لمحاكمنا
ارتباكاً عظيماً هي في غنى عنه وينجم أكثره من عدم معرفة
قضائنا الشريعة الإسلامية وأنى لهم ذلك ؟

ثم استطرد الكاتب كلامه فقال : ولقد طالعت مقالة في
مجلة وزارة الأديان بهذا الشأن ذيلها كاتبها بعدة آراء إذا سارت
عليها حكومتنا تخلصت من تلك الحالة الحرجة وإلتام الفائدة
أذكر تلك الآراء :

أولاً - ينبغي أن يضاف إلى نموذج مدارس القضاة
الحقوقية درس الشريعة الإسلامية حسب الطريقتين السنية
والشيعية وعلم الإرث .

ثانياً — ينبغي على وزارة الأديان أن تنتخب عدة علماء أفاضل لهم معرفة تامة وخبرة زائدة بالشريعة الإسلامية وتعهد إليهم ترجمة تلك الشريعة إلى اللغة الروسية ليسير بموجبها القضاة .

ثالثاً — ينبغي أن تضاف إلى بنود النظام المدني بنود جديدة يبين فيها كيفية استعمال الشريعة الإسلامية والطريقة التي ينبغي على القضاة أن يسيروا عليها في تطبيق فتاوى الأئمة على نصوص الشريعة وإيجاد الفقرات الموافقة من الشريعة للفصل في منازعات المتخاصمين بكيفية عادلة غير مجحفة بحق أحد .

رابعاً — ينبغي على محاكمنا أن تسير أيضاً على نظام محاكم تركستان الأهلية .

خامساً — ينبغي على حكومتنا أن تنتخب من المسلمين أئمة ذوى أهلية وكفاءة تعينهم معاونين للقضاة الروس في حل مسائل الإرث والحكم في بعض القضايا وتسنب لهم نظاماً يسرون عليه وترتب لهم رواتب شهرية .

ثم ختم الكاتب مقاله بقوله : ولنا وطيد الأمل بأن حكومتنا تعبر التفاتاً إلى هذه المسألة الخطيرة التي لا يحسن السكوت عليها .

وفعلاً لبث الحكومة الروسية نداء هذا الكاتب الحر المعتدل ونداء غيره من الكتاب الروسين المنصفين وعهدت إلى لجنة من الكتاب المسلمين الروس والمستشرقين تعريب الشريعة الإسلامية ليسير بموجب نصوصها القضاة الروسين في القضايا الخاصة بالمسلمين .

ومما يحسن نشره ويطيب ذكره أن للمسلمين الروسين عناية خاصة لا توجد لدى غيرهم وهي حفظ القرآن الكريم لاسيما تحفيظه للفتيات وإتماماً للفائدة أنشر مقالة بهذا الصدد

كنت نشرتها في العدد ٣٧٢٥ من جريدة المؤيد الغراء الصادر في ١٥ أغسطس سنة ١٩٠٢ عربتها عن جريدة ترجمان الروسية الإسلامية وها هي :

جرى في التاسع من شهر يوليو الماضي امتحان مدرسة البنات التي تحت إدارة حضرة الفاضلة بمبة خاتم بولاتوقوف وقد حضر الامتحان ماينيف عن مائة سيدة من والديات الطالبات وقريباتهن فكان عدد المنتهيات اللواتي نلن الشهادة الابتدائية باللغة العربية والروسية والدين والحساب وغير ذلك من العلوم عشر فتيات وقد أجادت تلميذات المدرسة الأجوبة وشنفن أسمع الحاضرات بتلاوة بعض سور القرآن الشريف . وفي الحادى عشر من الشهر المذكور جرى في مسجد المدينة امتحان إحدى طالبات هذه المدرسة البالغة من العمر تسع سنوات في حفظ القرآن واستظهاره أمام جمهور غفير من الوجهاء والأعيان وقد فازت تلك الفتاة في الامتحان فوزاً مبيناً وتلت القرآن جميعه في ساعات متوالية فلقيت بالحفاظة وحسب العادة الجارية عندهم ألبسها الإمام عمامة خضراء صغيرة وعلى إثر الامتحان أولم والد الفتاة السيد حسن النحاس وليمة فاخرة لجميع الحاضرين .

ثم قالت الجريدة عن حفظ القرآن ما مؤداه : إن استظهار القرآن وحفظه عادة قديمة عند المسلمين ولا تخلو الآن عندنا مدينة أو قرية من حافظين وحافظات للقرآن الكريم وهذه العادة كانت لها أهمية عظمى في صدر الإسلام لحفظ القرآن سالماً من التغيير والتحريف لعدم انتشار المطابع في ذلك الوقت ونسخه الخطية كانت قليلة جداً ولذا كان يحفظه الحافظون جيلاً عن جيل فلما شاعت المطابع طبع منه ملايين من النسخ . ومن ذلك أيضاً أن حضرة الفاضلة السيدة صفية عليه خاتم

عقيلة سليم أفندي جانتورين تحصلت من وزارة المعارف على رخصة لإنشاء مكتب وبعد أن فازت بضاكتها المنشودة شادت من جيها الخاص داراً فسيحة للمدرسة لتعليم الأولاد فيها اللغتين العربية والروسية وصناعة الأحذية والحدادة وقد استحققت هذه الفاضلة الشكر .

وقد أخذت بعد ذلك النهضة بين مسلمى روسيا تسير سيراً مطرداً وظهر بينهم من نوابغ الكتاب والمؤلفين الذين تلقوا العلوم فى مدارس روسيا وأوروبا العالية وأخذوا قسطاً وافراً من مدنية الغرب مثل صدر الدين أفندي مقصودوف أحد النواب المسلمين فى مجلس الدوما الذى خطب من عهد قريب خطبة فى مجلس الدوما كان لها دوى هائل فى جميع أنحاء روسيا أنحى فيها باللائمة على بعض الموظفين الروسين الذين يضطهدون فى بعض الجهات المسلمين ويصادرون مدارسهم ولكنى لدى إمعان النظر فى خطبته ألفتة يبالغ فى سرد الحوادث وكأنى به كان يبلغ تلك المبالغة ليجعل لخطبته تأثيراً فى النفوس ويحرك الحكومة على الاقتصاص من الموظفين الذين يخالفون القوانين ويعتدون على الرعية بدون حق والذى أعلمه بنفسى وسمعتة من أفواه الكثيرين من كبار مسلمى روسيا وسراة القوم أن المسلمين فى روسيا يرفلون بحلل الصفاء ويرتعون فى رياض الهناء .

ومن نوابغ الكتاب المسلمين فى روسيا الكاتب الشهير أحمد بك أجايف المقيم الآن فى الآستانة العلية يحرر بجرائدها وقد رأيت لحضرتة فى بعض مؤلفاته مقدمة دافع بها عن الدين الإسلامى وذكر الأسباب التى حملت الأوروبيين على الطعن على ذلك الدين لسبب جهلهم معتقداته وقد رأيت أن أنقلها عنه بالحرف الواحد :

قال الكاتب يذكر الترهات والاختلافات التي كان ينسبها الأوربيون للدين الإسلامي كما يأتي : إن سواد الأوربيين الأعظم الذي يسلم بداهة بالأمر دون بحث بأسبابها ونتائجها وذلك بالنظر لاستيلاء العقائد الفاسدة على عقولهم ورسوخها في أذهانهم سواء كان في أوروبا أو روسيا فإنهم يعتقدون اعتقاداً متيناً بأن الذنب على الإسلام في جميع ما يجرى في البلاد الإسلامية ولولا وجوده لكانت الحال هناك على غير ما هي عليه الآن المعتقدون بهذا الاعتقاد يرون أن المسلمين ماداموا مسلمين لا يستطيعون الإقبال على المدنية الأدبية العمومية ثم إنهم أى الغربيين يزعمون أن الشر جميعه متمثل في الإسلام ويتصورون أن أعظم وسيلة تنقذهم منه هي ملاءمة نفس الدين ومحقه من وجه الأرض وهذه الأفكار رسخت في العقول منذ أجيال عديدة سالفه من جراء الخصام والتشاق والتزاع العنيف بين الغرب والشرق وذلك في خلال قرون مديدة بسبب اختلاف الإسلام والمسيحية الأمر الذي يظهر الرجل الساذج الذي لم يعتد التبصر والتفكر والتروى بأن هاتين الديانتين على طرفي نقيض في الجواهر والمعتقدات ولا يمكن التوفيق بينهما وأخيراً فإن هذا الاعتقاد ساد مدة طويلة بين أهل الغرب يدلنا على ذلك دلالة واضحة الآداب البرنطية واللاطينية المضادة للإسلام ومن أراد زيادة إيضاح عليه أن يقف على مؤلفات ومخلفات العصور الوسطى لاسيما الفترة التي حدثت فيها الحروب الصليبية .

والإنسان يتأثر تأثيراً شديداً تهتز له أعصابه لدى مطالعته تلك الترهات والمثالب والمطاعن التي كان يتناشدها مغنو وشعراء الرومان الساذجون وينادى بها النساك ورجال الدين في المعابد والمجتمعات العامة والبرارى يصفون فيها شخص وتعليم

* أنظر تاريخ الآداب الفرنسية
والآداب البيزنطية ضد الإسلام
تأليف جمعية المبشرين في قازان .

سائق الجمال الذي أطلقوا عليه اسم « النبي العرفى الكاذب » (١) ومن الأمور المضحكة المبكية نظر أهل الأجيال الوسطى إلى الإسلام واعتقادهم به فكان الشعب يصدق بداهة كل افتراء على الإسلام وأتباعه وقد بالغوا في استنباط المفتريات والسفاسف لدرجة لا يجوز تصديقها لما فيها من الغرابة المنكرة وقد أدى بهم الجهل إلى تصوير محمد بهيئة الشيطان ذى قرنين وأطلقوا عليه (ضد المسيح) الراسخ في أذهان القوم بأنه يفسد الناس ويخرجهم عن دينهم ولذلك لا بد أن يزرع في سعيه النار حيث لا يقر له فيها قرار . ثم إن تيورين الكاذب المفترى ألف رواية وصور فيها محمداً بهيئة الصنم ماهوم الذى كانوا يعبدونه في قانس ولم يجسر كارلوس الأعظم على تحطيمه وتكسيه خوفاً من الأبالسة الختفية في جوفه .

ومما مر يتضح للقارىء أن العقول النيرة كانت منغمسة بمثل هذه الاعتقادات الفاسدة والمفتريات الباطلة البعيدة عن الحقيقة بعد السماء عن الماء وقد أجمعوا عليها كلهم حتى إنه لو قام بينهم في مثل ذلك الوقت رجل كشف الله له عن نور الحقيقة وجاهر بها لكنت ترى الناس يصبون عليه صواعق سخطهم ونقمتهم فقد كادوا يحرقون دانتي في النار لأنه عد محمداً في (روايته الإلهية) بين الرجال العقلاء المصلحين ذوى المدارك السامية فاضطر لكى ينجو من سخط الشعب الذى تهدده بالقتل أن يضعه في عداد الرجال الأشرار الذين عاثوا في البلاد فساداً وبثوا بنور الشقاق والنفاق والخصام بين معاصريهم مثل « فراد التشينو » و « برتران بورن » وغيرهما اللذين هم في عرف الشعب من سكان جهنم . ثم إن المصور الإيطالى الشهير أركانيوس وضع عدة رسوم للأشخاص الذين يحتقرون جميع الديانات على الإطلاق واتخذوها مجرد الهزء والسخرية فصورهم

واقفين في جهنم ولهب النار يكتنفهم من جميع الجهات وفي مقدمتهم محمد وافيردوئيس (الوليد بن رستد) والمسيح الدجال أو ضد المسيح .

وبوجه الإجمال فإن الأجيال الوسطى كما قال أرنست رنان قد اشتهر أهلها بالحدة وعدم التروى ولم يكن عندهم درجة متوسطة لأمر من الأمور فكان محمد في عرفهم خداعاً مأكراً متخذاً مهنة سرقة الجمال وقالوا عنه بأنه كاردينال سعى للحصول على وظيفة البابوية فلم يفرز بها فوضع ديانة جديدة لكي ينتقم من زملائه الكرادلة وما ضارع ذلك من الأوصاف المجردة عن الإنصاف ولا تنطبق على العقل السليم (١) تمر الأجيال وتنقضى السنون ولا تزال سفاسف الناس وترهاتهم وأفكارهم السخيفة الواهية تضغط على العقول النيرة كما كانت في العصور المظلمة . إن بييلياندر وهوتينبجر وماراجي وغيرهم أخذوا يدرسون القرآن درساً مدققاً على قصد تفويض أركانه وأما لبنتس وشكسبير فإنهما تكلمتا كثيراً عن نبي المسلمين بقصد إضحاك الجمهور وتسليةهم وأما فولتير فإنه التمس الغفران من البابا بواسطة تقديمه له رسالة الطعن المشهورة التي عنوانها « محمد » وقد نسب بها إلى النبي محمد أموراً منكراً لم تخطر بباله ومنافيه على حظ مستقيم لروح تعليمه ومبادئه .

ثم إن الجيل التاسع عشر المسمى بحق جيل العلم والانتقاد الصحيح لم يخل من مثل هذه المختلقات والمفاسد التي جاهر بها بعض قادة الأفكار وأصحاب العقول الممتازة فقد وضع العالم الإنكليزي الشهير كارلوس فورستير عام ١٨٢٩ مجلدين ضخمين وقعا موقع الاستحسان والاحترام في نفوس رجال الدين لأنه برهن فيهما بالأدلة الكثيرة على أن محمداً هو قرن الكبش الصغير الوارد ذكره في الإصحاح الثامن من نبوة دانيال

* أنظر تاريخ الأديان لأرنست رنان ورواية محمد مؤلفها ف. ميشيل .

* كشف النقاب عن الدين الإسلامي وهو بحث في انتشار الدين وبقائه على طريقة تؤدي إلى زيادة الاعتقاد في الدين المسيحي .

وأن قرن الكبش الكبير هو البابا^(١) ولكن نصف الثاني من الجيل التاسع عشر الذي أشرقت فيه أشعة العلم وأماطت النقاب عن الشرق وتاريخه وحياته وذلك أنه عندما ازدادت المواصلات بين الشرق والغرب بواسطة انتشار السكك الحديدية وازداد توافد الغربيين إلى الشرق حيث دفعتهم المصالح التجارية والصناعية إلى الضرب في طول البلاد وعرضها فقاد العلم وحب الاستقرار علماءهم وأصحاب الأفكار الفياضة منهم إلى درس أخلاق وعادات أهل الشرق المتدينين بغير دينهم ودرس أحوال البلاد في نفس البلاد ولم يقفوا عند هذا الحد بل تجاوزوه إلى مطابقة الحاضر بالغابر مطابقة مبنية على العلم والتحقيق والكتابات الماضية وأبدوا في خلال ملاحظاتهم على الأدوار العديدة التي تقلبت فيها الأديان منذ ظهورها وما تحملته من الانقلاب والتغيير ولم يميلوا في عملهم هذا ودرسهم مع الأهواء بل دونوا الحقيقة مجردة عن كل غرض فاسد وميل منحرف وهذا يناقض حالة العلماء في الأجيال الماضية الذين غش التعصب الديني أبصارهم وأسدل حجابا كثيفا على أفكارهم فأعماهم عن المجاهرة بالحقيقة وقادهم إلى الابتعاد عن جادة الحق والإنصاف وقد تبعهم في ذلك سواد الناس الأعظم الذين لزعمهم بأنهم حاملو الحق فإنهم لا يستطيعون احتمال معتقدات غيرهم من الناس والوقوف حيالهم موقف السكينة والرضى بل يسفهنها ويلهبون في انتقادها كل مذهب .

أما في أيامنا الحاضرة التي أصبحت فيها الأديان مادة للمباحث العقلية فقط لأنها فقدت مادة التعلق بها ذلك التعلق الديني الشديد ولا يهتم بها الناس الآن إلا لأنها من مظاهرات نفس الإنسان ولم يعد الناس يتحاورون بشأنها ولا يوجه كل صاحب دين إلى الأديان الأخرى أنواع السباب والمطاعن

والتهكم وأصبح عمل المستشرق الذى يهتم بأمور الأديان والوقوف على تاريخ الشرق يخرج من تحت ذراعه كتليل الكيماوى الذى يخرج من معمله وتراه أى المستشرق يهتم بجميع العوارض والمظاهر اهتماماً واحداً دون أن يفضل أمراً منها على الآخر وإنما ينشرح صدره وتطيب نفسه لدى اطلاعه ووقوفه على مبتكرات فكر الإنسان فى كل آن وزمان وإظهار قواه الفياضة ولذلك فلا عجب إذا شاهدنا فى هذا العصر الانقلاب العظيم الشأن الذى أحدثه درس أحوال الشرق فإنه غير نظر العلماء السابق بشأن الأديان المختلفة وشؤون الشرق على العموم لاسيما بشأن النبى محمد وتعاليمه فأصبح محمد فى عرفهم ونظرهم ليس صورة للصنم ماهوم ولا هو ضد المسيح المقيد فى جهنم ولا قرن الكيش الصغير الوارد ذكره فى نبوة دانيال بل هو ذلك المصلح العظيم الذى هز العالم بتعاليمه ومبادئه وأفكاره السامية وأنه وضع أساس تعليمه ليس لأنه كان كاردينالاً ولم يفز بوظيفة البابوية بل لأن قواده كان يلهب غيره على الحق الذى شوهدت وجهه الشكوك أو الاختلافات التى دخلت عليه ذلك الحق الذى نادى به فى العالم ذلك « النبى العظيم » قبل ظهوره بستة قرون ولم يدرك جوهره تلاميذه النشيطون الغيورون بل ذهبوا فى تأويله كل مذهب عندما علموا الناس به لاسيما فى البلاد العربية وقد ورد فى القرآن آيات كثيرة تدل على ذلك بأجلى بيان وتأملوا فقط ذلك الشكر ان الجميل الذى جاهز به نبى المسلمين بشأن الصابئين الذين ظنوا لأول وهلة أنه ينادى بتعليم المسيح .

ثم إن آيات القرآن النازلة بشأن آلام عيسى وولادته وذكر مريم والدة روح الله فإنك ترى التأثير ظاهراً من كل كلمة منها مقروناً بذلك بمزيد التعظيم والاحترام وفوق هذا وذاك فإن

المسلمين يعظمون مريم أكثر من بعض الطوائف النصرانية فهي في عرف المسلمين عذراء طاهرة صالحة قد اصطفاها وشرفها رب العالمين والنبى يظهر لها احتراماً دينياً يفوق الوصف حتى إنه عندما أراد أن يمدح ابنته فاطمة قال « فاطمة سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم بنت عمران » ثم إن النبى أدراك تعليم عيسى كما هو وجاءت الديانة المحمدية مطابقة لها ونفت جميع المعتقدات الباطلة التي دخلت عليها وشوهت جوهرها وورد في أمكنة كثيرة من القرآن ما مؤداه وإني جئت لإثبات تعليم عيسى الحقيقى (١) .

* راجع ترجمة القرآن
لسابلوجوف .

قال المستشرق الإنجليزى الشهير ماكس مولر : سوف يعلم المسيحيون بدهش عظيم أن محمداً أحد معضدى يسوع وأن الديانة المحمدية ما هي إلا شعبة من شيع الديانة النصرانية وإذا ذلك يندهش المسلمون والمسيحيون معاً بسبب ما جاء في تاريخهما من الخصام والشقاق والعداء بسبب الدين (٢) . وقد وافق كثير من علماء أوروبا المستشرقين على رأى هذا العالم وعضدهم في ذلك أيضا كثير من الروسيين العقلاء ذوى الأفكار السامية مثل فلاديمير سولوفيف وبيترون .

* راجع كتاب محمد والمحمدية
لماكس مولر .

والعالمة المشهورة مدام ليبيديف التي تقيم معظم السنة في القاهرة ويعرفها كثيرون من أفاضل ونبلاء وعلماء المصريين فإنها وضعت عدة كتب بلغات مختلفة دافعت بها عن الدين الإسلامى دفاعاً شديداً وأظهرت فضله وتحضرتها مؤلفات كثيرة بشأن المرأة حرية بالمطالعة والاعتبار .

ولكن مع الأسف نقول أن سواد الناس الأعظم لم يزل على غيه تائها في فياق الضلال ولا ينجح إلى الحقيقة الثابتة التي أيدها علماؤه وقادة الأفكار منهم بل مازال رازحا تحت نير اعتقادات وخرافات القرون الوسطى بشأن محمد وتعليمه ناسيا

ضعف الأمم الإسلامية في عصرنا الحاضر وانحطاطهم السياسي والأدبي والأخلاق العام فيما بينهم إلى الإسلام وجاهلاً بأن كل إنسان في هذه الحياة لا يستطيع أن يلعب على الدوام دور النجاح والتقدم وأن الديانة ما هي إلا شيء مستقل مجرد عن كل قوة لا يستطيع تحسين حالة الحياة ثم إنه وأخيراً لا بد من حصول الشقاق المتبادل الدائم بين المتدينين بالديانات المختلفة ولو كان ذلك بطريقة غير محسوسة لكنه دائم الحركة المشتركة بين المتخالفين في المعتقدات . وكل ديانة كما لا يخفى تكون في أول ظهورها محرك قوى تدب روح الحركة في قلوب الذين يتبعونها وذلك على قدر ما يكون لها من التأثير الروحي والمادى في نفوسهم ولكنها أى الديانة تتقلب مع مرور الزمان في أدوار مختلفة بحسب حالة تابعيها من العلو والانحطاط فتعز وتعلو بعلو شأنهم وتنحط بانحطاطهم ويدخل عليها في الحالة الأخيرة الفساد وتشوه الاختلافات التي تدخل عليها وجه حقيقتها وتزعزع أساس جوهرها وهذا هو السبب الوحيد والبرهان الفرد على ظهور البدع والشيع المتعددة في هيكل الديانة الواحدة وكذلك دخول الفساد على تعاليمها وتفسيرها ولو قابلنا حالة الديانة المسيحية بحالتها في القرون الوسطى وفي أيام الإصلاح وأيامنا الحاضرة لظهرت لنا بأجلى بيان تلك الأدوار المختلفة التي كابدتها وما دخل عليها من التغيير والفساد والتفسير المتناقضة المتباينة مع أنها ديانة مبنية على أساس متين واضح ومثل ذلك جرى للديانة الإسلامية بقطع النظر عما دخل عليها من البدع والتفسير التي لا تطابق حقيقة جوهرها وليست منها في شيء